مدرسة دار الحديث بتلمسان ودورها في مقاومة السياسة الاستعمارية

أ/ طويلب عبد الله
قسم التاريخ وعلم الآثار جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان-

لقد كان لظهور الشيخ البشير الإبراهيمي بتلمسان في أكتوبر 1932 أثره الكبير في بناء مدرسة " دار الحديث " المسماة على دار الحديث الأشرفية التي أسست منذ قرون في دمشق، وتخرج منها أشهر الأئمة الذين خدموا الإسلام، حيث أن الشيخ الإبراهيمي كان يدرس فيها، ويحِنُّ إلى ذلك المعهد، ولذلك سمى مشروعه الذي أسسه في تلمسان " مدرسة دار الحديث ".

1- بناء المدرسة:

ومسجلة يوم 17 فيفري 1936 بالسجل الحامل رقم 1490 تحت رقم عنواني 27 و28، وتقدر مساحة المشروع الإجمالية 140 م^2، وقد تمت سلسلة العقود في الفترة الممتدة بين 1861 و1936 أي أن أقدمها يعود إلى الفترة التي تمت السيطرة الاستعمارية خلالها على المدينة[1]، أما المشتري فحسب العقد إما الجمعية الثقافية التلمسانية، وإما قائمة المشترين، ومع أن هذه الجمعية كان لها رئيس ولجنة تلقى الشيخ البشير الإبراهيمي دعما من قبل الجمعية الدينية الإسلامية[2] في بناء دار الحديث، وذلك أثناء الجمعية العامة التي عقدتها بحضور الشيخ البشير الإبراهيمي يوم 23 ديسمبر 1934 .

وضعت الجمعية كل الثقة في الشيخ البشير الإبراهيمي لاختيار الأعضاء الأكفاء للجنة الجديدة ثم إجراء الانتخاب عليهم " فتكونت الجمعية الجديدة وأعضاؤها هم: طالب عبد السلام، مرزوق محمد، بربار عبد الكريم، أولاد العزوني، بريكسي حاج أحمد، منصوري محمد بن سليمان، بريكسي محمد، دحاوي الجيلالي، قاضي محمد، قارجة حاج أحمد، محداد سيد أحمد، طالب حاج أحمد، طالب حاج بن عياد، طالب حاج جلول، الطبيب علال، بن اسماعيل سيد احمد، حاج سليمان بن عودة، حاج أحمد جلول، نبية حاج أحمد، فخارين علي، بن قلفاط غوتي، ابن زرجب بن علي، ابن ديمراد العربي، قلوش عبد السلام، الشافعي هبري، ابن آباجي حاج أحمد، حمدي محمد(32 عضوا) [3].

وتقسمت الجمعية إلى أربع لجان:

- لجنة تختص بتشييد محل الجمعية (لجنة البناء)
- لجنة تختص برفع المستوى الثقافي والاجتماعي (اللجنة الثقافية)
- لجنة تختص بالتعليم الديني (المعلمين)
- لجنة التعاون المتبادل (اللجنة الاجتماعية)[4]

و من أجل تجسيد المشروع عمليا تم شراء قطعة أرض في أوائل سنة 1935 وكانت في الأصل عبارة عن دكان ليهودي اسمه " بن يشو" كان يستغله لبيع الحبوب، أما وثيقة عقد الملكية فهي موجودة بمصلحة محافظة الأملاك بتلمسان إلا أنه مع ذلك جاء في العقد ذكر قائمة طويلة تحتوي على 171 مشتريا.

-لقد حاولت الجمعية أن تمثل في عملية الشراء مختلف طبقات الشعب بمدينة تلمسان خدمة للمصلحة العامة، ويتضح من خلال تحليلنا للقائمة، إذ نجد بها المعطيات التالية: اسم ولقب وحرفة وعنوان كل من المشترين [5].

في نفس اليوم الذي سجل فيه العقد 07 فبراير 1936 وضع الحجر الأساسي لبناء مدرسة دار الحديث، وكان الشيخ البشير الإبراهيمي المحرك الأساسي لعملية البناء والتمويل، إذ أنه كان دائم الحضور في ميدان البناء للتفقد بمساعدة بعض أعضاء لجنة البناء والتشييد، ويتابع عن كتب وباهتمام بالغ إنجاز المشروع[6].

و بخصوص المبادرة بالتبرع بالأموال فكانت في البداية لبعض أعضاء الجمعية الدينية ليكونوا قدوة لغيرهم، ثم ساهم بعد ذلك سكان تلمسان على اختلاف فئاتهم بالأموال، وبقيت قوائم التبرعات مفتوحة دون تحديد . وبهذه الطريقة تقدمت الأشغال دون انقطاع بفضل الله ومساهمة الآلاف من سكان تلمسان، وأغلبهم فضل عدم ذكر اسمه، وقد حدد زمن بناء المدرسة بثمانية عشر شهرا(18)، وهو زمن قياسي نظرا لضخامة المشروع، حيث كان لهذه المدرسة طابعها الحضاري الإسلامي والعربي وكانت بحق مفخرة الجزائر، وكانت أول مدرسة[7] تبنيها جمعية العلماء المسلمين من الأساس إلى الهرم بطابع وشكل مميزين على نمط الهندسة العربية الإسلامية في الأندلس .

كما أن المدرسة تتكون من طابق أرضي فيه مسجد للصلاة، وقاعة للوضوء في الطابق السفلي، وقاعة للمحاضرات وخشبة للمسرح، ومكتب

إدارة المدرسة في الطابق الأول، أما الطابق الثاني فيحتوي على خمسة أقسام للدراسة [8].

إن بناء هذه المدرسة كان بمثابة تحد من قبل سكان تلمسان وجمعية العلماء المسلمين للإدارة الفرنسية، وإثباتا لفرنسا أن الأمة الجزائرية قادرة على النهوض وتعليم أبنائها وبناء حضارتها ومستقبلها بنفسها دون مساعدة أي أحد، وظهر ذلك في كون أن دار الحديث كانت أجمل شكلا، أبهى منظرا وأعلى بنيانا من جارتها المدرسة الفرنسية المسماة على اسم المستشرق دوسلان[9].

2- افتتاح دار الحديث:

ما إن انتهت عملية البناء، حتى بدأ الشيخ البشير الإبراهيمي في توجيه الدعوات، فكانت أول دعوة لكل الجزائريين وذلك في المؤتمر السنوي العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد سنة 1937 بنادي الترقي في العاصمة[10]، حيث جاء فيها: " أيها الإخوة الكرام لقد حمّلني إخوانكم التلمسانيون أمانة يجب أن أبلغها إليكم، وهي أنهم يسلمون عليكم ويعاهدونكم على التفاني في خدمة الجمعية ونشر مبادئها ويبشرونكم أنهم شيدوا للإسلام والعروبة معهدا لم يكن له نظير في تاريخ الجزائر الحديث، كما أنهم يتشوقون ويتشرفون أن يكون فتح هذا المعهد أول مرة بيد علامة الجزائر وزعيم نهضتها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس، وهذا المعهد هو دار الحديث ..." [11]، كما وجه دعوة إلى أهالي مدينة تلمسان جاء فيها : "... والجمعية الدينية الإسلامية المشرفة على تدشينها تتشرف بدعوتكم

للحضور في هذا المهرجان المبارك وتسألكم بحق الأخوة ألا تقصروا في واجب الحضور الذي هو تأييد للعلم، وإعانة للإسلام والعربية ..." [12] .

كان يوم 27 سبتمبر 1937 يوما مشهودا في تاريخ الجزائر عامة وتلمسان خاصة، حيث توافد الناس من كال القطر الجزائري حضور افتتاح دار الحديث، وقدر عددهم بحوالي بثلاثة آلاف شخص منهم سبع مائة من خارج المدينة والبقية من أهالي تلمسان[13]. وكان الشيخ محمد مرزوق على رأس اللجنة الثقافية والاجتماعية، وتكفل بمراسيم حفل الافتتاح واستقبال الشخصيات والمدعوين، ومن أبرزهم الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي وصل على الساعة العاشرة والنصف إلى محطة القطار وكان مرفوقا بوفد رسمي من العلماء، واستقبل بحفاوة كبيرة تليق بمقامه من قبل الشيخ البشير الإبراهيمي، ورفقائه من رجال الإصلاح بتلمسان والمستشارين البلديين، ومشى أعضاء الوفد راجلين متتبعين الطريق الذي رسم لهم وهو محطة القطار – باب سيدي بومدين- المدرس- الشارع الوطني المعروف بشارع العقيد لطفي الآن، حتى مدرسة دار الحديث .

سار الموكب في انتظام وكان يضم حوالي 3000 شخص من بينهم 600 إلى 700 من الجزائر، قسنطينة ونواحي تلمسان، ولإعطاء الحدث بعدا مغاربيا وعربيا حضر حوالي ثلاثة أشخاص من تونس وحوالي خمسة عشر شخصا من المغرب الأقصى وعلى رأسهم " الأستاذ إبراهيم الكتاني [14]، وثلاثة من الصحفيين العرب، صحفي من جريدة الأمة، جريدة العدالة والثالث من الجزائر[15].

كما تلاحقت الوفود وتجمعت أمام مبنى المدرسة، وفي هذا المشهد العظيم وقف الشيخ البشير الإبراهيمي بباب المدرسة يخاطب الرئيس عبد الحميد بن باديس – وهو يناوله المفتاح – بهذه الكلمات البليغة: " أخي الأستاذ الرئيس: لو علمت في القطر الجزائري بل في العالم الإسلامي رجلا له يد على العلم مثل يدكم، وفضل على الناشئة مثل فضلكم لآثرته دونكم بفتح هذه المدرسة، ولكني لم أجد،... فباسم تلمسان، وباسم الجمعية الدينية بالخصوص، أنا ولكم المفتاح، فلهذه المدرسة أن تتشرف بذلك ."[16]، وتناول الأستاذ ابن باديس المفتاح وقال: " بسم الله الرحمن الرحيم، على اسم الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة أفتح مدرسة دار الحديث،" "[17]

بعد إلقاء الشيخ ابن باديس هذا الخطاب المؤثر، قام بفتح الباب ودخل خلفه العلماء والضيوف، وبقي أهالي تلمسان خارج المدرسة، حيث كانوا يهتفون" ابن باديس، ابن باديس، نريد أن نرى ونسمع ابن باديس "، فأطل عليهم هو والشيخ البشير الإبراهيمي وبقية العلماء من الشرفة في الطابق الأول[18] وخاطبهم قائلا : " يا أبناء تلمسان، يا أبناء الجزائر، إن العروبة من عهد تبع إلى اليوم تحييكم، وإن أجيال الجزائر من هذا اليوم إلى يوم القيامة تشكركم وتثني عليكم وتذكر صنيعكم بالجميل، يا أبناء تلمسان كانت عندكم أمانة من تاريخنا المجيد فأديتموها فنعم الأمناء أنتم فجزاكم الله جزاء الأمناء والسلام عليكم ورحمة الله "[19]

وقد ألقى الشاعر الجزائري " الفريد محمد العيد آل خليفة " قصيدة في دار الحديث، جاء فيها:

لقد بعث البشير لها بشيرا ******* بمجد كالركاز بها يثارُ
و في دار الحديث له صوان ***** بديع الصنع مصقول منارٌ
فيا دار الحديث عمي نهارا ****** وعمرك كله أبدا نهارُ
تلمسان ابتغي أبدا مدارا ******* فأختك في السماء لها مدارُ

وفي اليوم الثاني ألقى الشيخ الفضيل الورتلاني[20] خطابا حماسيا طويلا تعرض فيه إلى الحركة العلمية، التي تقوم بها جمعية العلماء المسلمين في الجزائر وفي فرنسا[21].

3- رد فعل الإدارة الفرنسية:

ما كاد الاحتفال بدار الحديث ينقضي حتى قدمت النيابة دعوة ضد الشيخ البشير الإبراهيمي المسؤول على الاحتفال فوجه نائب الوالي للشيخ اتهاما تمثل في القيام بمسيرة غير مرخص بها، واستعمال مكبر الصوت، ومهاجمة السياسة الفرنسية في خطبة الورتلاني، ونصح نائب الوالي بأن التهمة الأولى هي الأهم والأوضح وينص عليها القانون بالسجن من 15 يوما إلى ستة أشهر، وبغرامة مالية من 16 إلى 2000 فرنك حسب قانون 1935، أما المكبر فقد استعمل داخل المدرسة ولذلك يمكن تطبيق العقاب البوليسي البسيط ضد استعماله بتطبيق قانون 1861، وفيما يخص الخطبة التي هوجمت فيها السيادة الفرنسية، فقد كانت داخل المدرسة وفي اليوم الثاني من الاحتفال[22].

و لم تمض ثلاث أشهر على فتح المدرسة حتى أمر الوالي العام بالجزائر بغلقها رسميا في 31 ديسمبر 1937 على الساعة الخامسة صباحا بالقرار المعروف " Arrêté Gubernatorial" حسب جريدة " Lécho d'Oran"،

ونجد أن طالب عبد السلام قد تقدم بطلب رخصة إعادة فتح درا الحديث[23]، بعد أن قامت السلطات بغلق الأقسام المخصصة للتعليم واستمر الشيخ الإبراهيمي في استعمال الجامع وقاعة المحاضرات ولقاء الكبار من الناس . واعتبر ذلك انتصار ضد السلطات الاستعمارية[24].

و في 28 يناير 1938 جددت الجمعية الدينية المشرفة على دار الحديث طلب رخصة التعليم للسلطات الفرنسية لكن هذه الأخيرة رفضت، ولم تكتف بذلك بل قدمت كل من الشيخ البشير الإبراهيمي وطالب عبد السلام للمحاكمة في 27 جوان، فخرج هذا الأخير ببراءة، أما الشيخ فقد حكم عليه بـ16 فرنكا غرامة بدون تنفيذ وهو الحكم الذي أكدته محكمة الاستئناف بالجزائر. وكانت التهمة الموجهة للإبراهيمي هي القيام بمسيرة من محطة القطار إلى مقر المدرسة دون رخصة، ولقد استعانت السلطات الفرنسية بالمرابطين في تعطيل مشروع درا الحديث، حيث كان للمرابطين في ذلك انتصار معنويا كبيرا في نظرهم ضد الشيخ البشير الإبراهيمي وأتباعه[25].

و بعد تعيين AL. Garbonat نائبا جديدا لوالي تلمسان تقدم هذا الأخير بعدة مقترحات بدأها بعرض الوضع بتلمسان في الوقت الذي استلم فيه مهامه في أوت 1938 ورفض منح رخصة التعليم للجمعية [26]، وبذريعة أن العلماء يحملون مشاعر معادية للمصالح الفرنسية، وأنهم يجعلون من الدين واللغة انطلاقة سياسية ولهم علاقة مع الأحزاب، حزب الشعب الجزائري والكشافة الإسلامية، كما جاء في تقرير النائب الجديد تراجع حركة العلماء بتلمسان ونقص التبرعات وتشكيك في مصاريف الأموال، وقد ذكر أن المدرس ناصر بن الشيخ، كان يلقي عدة دروس في الجامع الكبير والذي

عرف كيف يجمع النفوس من حوله، ولحد من نشاط العلماء وتأثيرهم في الأوساط الشعبية وخاصة الشبيبة ويقترح توظيف مدرس محلي بالمدرسة الرسمية يتكفل بتلاميذ المدارس القرآنية الحافظين للقرآن الكريم ويعلمهم النحو العربي في المساء وفي الأخير يقترح التقرير توسيع التشريعات السياسية للجزائريين من أجل الحفاظ على الهدوء، الذي بدأ يسود المنطقة منذ مدة.

كما تم احتلال دار الحديث من قبل الأكاديمية أثناء الحرب العالمية الثانية 1939 (قاعة المحاضرات بالطابق الأول وحجرات الطابق الثاني)، ولما اطلع الشيخ البشير الإبراهيمي على هذا القرار طلب الاحتفاظ بقاعة المحاضرات والجامع، لكن السلطات الفرنسية رفضت طلبه وأجابته: " يجب أن يكون الاحتلال كاملا لأسباب سياسية، بحيث لا تبقى للعلماء في دار الحديث أية صلة كما قالوا له أن هناك أسبابا أخرى تستدعي الاحتلال الكامل وهي المحافظة على الأقسام والخدمات الصحية واستعمال المراحيض[27].

و أثناء اندلاع الحرب العالمية الثانية رفض الشيخ الإبراهيمي مساندة فرنسا في حربها ضد ألمانيا، حيث تلقى الوالي العام رسالة غير موقعة من أهل تلمسان في أفريل 1940 عنوانها " باسم السكان المسلمين لتلمسان وما جاورها" نحتج على غلق مدرسة درا الحديث بدون مبرر، وعلى المعاملة اللإنسانية ضد الشيخ، ومن دار الحديث كانت الإدارة الفرنسية تجمع كل ما عندها ضد نفوذ العلماء والشيخ، لكي تحكم عليه في النهاية بالنفي من تلمسان إلى مدينة آفلوا[28]، وذلك في 12 أفريل 1940.

تعود أسباب نفيه إلى حركته الثورية، وكذلك امتناعه عن التحدث في الإذاعة الجزائرية بهدف حيرة الجزائريين على الوقوف باخلاص إلى جانب فرنسا في حربها ضد دول المحور[29]. كما تعرض بعض الشيوخ دار الحديث إلى ضغوطات من قبل الإدارة الفرنسية أمثال: الحاج أحمد رحمون الذي أرادت المخابرات الاستعمارية استنطاقه عن تحركات وأعمال الشيخ البشير الإبراهيمي بتلمسان لكن دون جدوى . لقد خيب الشيخ الإبراهيمي آمال المستعمرين ليبقى في المنفى ثلاث سنوات، كما انتخبه المجلس الإداري للجمعية خلفا للشيخ عبد الحميد بن باديس الذي توفي سنة 1940، وظل الإبراهيمي يسير أعمال الجمعية من المنفى بالرسائل المتبادلة بينه وبين أعضاء الجمعية[30]، أما بالنسبة لدار الحديث فقد بقيت تحت يد الأكاديمية وبعد دخول الجيش الأمريكي إلى الجزائر في 8 نوفمبر 1942، رجع الشيخ إلى تلمسان في موكب كبير ودخل المسجد وراح يتابع الدرس، الذي لم ينهيه يوم نفيه وكأنه لم يحدث شيء، فعاد إلى نشاطه العادي بالمسجد والمدرسة، التي أعيد افتتاحها سنة 1943، وبقي بتلمسان إلى غاية سنة 1946 حينما غادرها نهائيا، لأن إدارة الجمعية ومهامها أصبحت تتطلب وجوده بالعاصمة بعد وفاة الشيخ مبارك الميلي وقبل ذهابه عين أناسا أكفاء للنشاط بدار الحديث والقيام بصلاة الجمعة ودروس الوعظ والإرشاد[31].

4- برامج التعليم بالمدرسة:

سعت جمعية العلماء إلى إصلاح أساليب التعليم فاتخذت المساجد والمدارس للقضاء على تلك الأساليب القديمة في التعليم، حيث أن في المساجد كان يذكر كتاب الله تعالى وتشرح عبره، ومن السنة النبوية كانت

الجمعية تبني وتنشر العبر، وكذلك سير الصحابة وهديهم، أما في مجال التعليم المدرسي، فيعد أسلوبها في تلقين العربية هو أحد مفاخرها، فهي تعهد إلى الأساتذة في تعليم التلاميذ أبسط القواعد في أسهل التراكيب، ثم تمكنهم منها بتمرينات التطبيقية. " ويدخل في باب التعليم المدرسي قراءة القرآن الكريم فهو سلاحها الذي به تناضل، وعلى الدعوة إليه بنت مبدأها الإصلاحي. ومن فروع هذا النوع تعليم الأميين من الكبار، وهو من أهم فروع التعليم في نظر الجمعية. وأما المحاضرات التهذيبية فأسلوبها يرتكز على الخطابات المؤثرة في العقول"[32].

أما الدروس الأخرى فإن الجمعية تختار لها من الكتب ما هو أقرب إلى الاستفادة وأسهل للفهم، فهي تتجنب الكتب المعقدة، وتقوم بإرشاد تلامذتها وجميع أعضائها إلى كيفية الإطلاع على الكتب وطرق البحث في التاريخ، الاجتماع، والأدب، ...[33].

إن مدرسة دار الحديث كباقي مدارس الجمعية قد اعتمدت على هذا الأسلوب التعليمي في نشر الثقافة العربية الإسلامية، وقسم التعليم بمدرسة دار الحديث إلى مرحلتين:

***المرحلة الأولى:**

بعد افتتاح مدرسة دار الحديث بدأت الدراسة بها في مطلع شهر أكتوبر 1937 مثل بقية المدارس الفرنسية، ودامت مدة الدراسة بها ثلاثة أشهر فقط، ثم أغلقتها الإدارة الاستعمارية في شهر يناير 1938[34]. وكان المدرسون الذين شكلوا طاقم التأطير الأول بها هم: الشيخ البشير الإبراهيمي،

الشيخ محمد مرزوق، الشيخ مولاي الحسن البغدادي القادري، الشيخ الهادي السنوسي، والأستاذ محمد بابا أحمد. وفيما يخص الأقسام فكان يوجد القسم المتفوق ويدرسه الشيخ البشير الإبراهيمي، وقد خصص للذين كانوا يدرسون بمدرسة دريبة زرار، أما القسم الثاني والثالث يدرسهما الأستاذ محمد بابا أحمد، والشيخ الهادي السنوسي، ويدرس فيهما المبتدئين[35].

و بعد أن أُغلقت المدرسة بقي المسجد مفتوحا يلقي فيه الشيخ البشير الإبراهيمي دروسا يومية متواصلة دون راحة في العطلة الأسبوعية، ففي اليوم الواحد كان يلقي عشرة دروس أولهما قبيل صلاة الصبح وآخرها بعد صلاة العشاء[36]، يعطي في هذه الدروس اهتماما كبيرا للغة العربية، بحيث يقول في موضوع تجربته لإحيائها بتلمسان: " ولقد بدأت دروسي ومحاضراتي في تلمسان بالعربية الفصحى وأخذت نفسي بذلك أخذا أصيلا فيه ..."[37].

كما اعتبر الشيخ البشير الإبراهيمي الجمع بين التعليميين العربي والفرنسي باب من أبواب الثقافة، فالتعليم الفرنسي سلاح من أسلحة الحياة، وخير دليل على ذلك استقباله لتلامذة الفرنسية بعد الرابعة والنصف مساءا، لكي لا يحرموا من أحد التعليميين، فأما الإدارة الاستعمارية فإنها ترى أن بقاء أبناء الجزائر في الشارع دون دراسة خير من تعليمهم، بل أخذت في مضايقة معلمي المدارس التابعة للجمعية، ومنعهم من التدريس في المساجد[38] وفي هذا الموضوع يقول البشير الإبراهيمي: " إن الحكومة ترى أن بقاء أبنائها في الأزقة مُعرضين للشر والفساد خير من تعليمنا

إياهم تعليما عربيا وإسلاميا، فلما صممنا على أداء الواجب علينا لديننا وأمتنا صممت على المعاكسة والتضييق"[39].

*** المرحلة الثانية:**

بعد ستة سنوات من غلق المدرسة أعيد فتحها سنة 1943، بعد سقوط فرنسا أمام ألمانيا، ونزول الجيش الأمريكي والبريطاني في شمال إفريقيا في 08 نوفمبر 1943 وتقربهم من الجزائريين، وذلك بإطلاق سراح المسجونين والمعتقلين، حيث أطلق سراح الشيخ الإبراهيمي من منفاه بآفلو، وعاد إلى تلمسان لرئاسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فقام بفتح ثلاثة أقسام أخرى بالمدرسة يدرسها الأستاذ محمد ملوكة، الأستاذ عبد الله بوعنان، والأستاذ مختار الصبان، فأصبح المجموع ستة أقسام يشتغلون في اليوم بالتناوب.

و في الفترة ما بين سنة 1943 و1946 فتح قسم خاص ذو مستوى عال يدرسه الشيخ البشير الإبراهيمي من بعد صلاة المغرب. وفيما يخص المواد المدرسة فهي كالتالي : تفسير القرآن الكريم، الحديث الشريف، اللغة العربية، التاريخ والجغرافية، الفقه، الشعر، البيان والعروض، وبهذا الصدد يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: "... وتوليت بنفسي تعليم الطلبة الكبار من الوافدين وأهل البلد، فكُنت ألقي عشرة دروس في اليوم، أبدأها بدرس في الحديث بعد صلاة الصبح، وأختمها بدرس في التفسير بين المغرب والعشاء، وبعد صلاة العتمة أنصرف إلى إحدى النوادي فألقي محاضرة في

التاريخ الإسلامي، فألقيت في الحقبة الموالية لظهور الإسلام من العصر الجاهلي إلى مبدأ الخلافة العباسية بضع مئات من المحاضرات"[40].

5- علاقة دار الحديث بالحركة الوطنية:

كان من بين النشاطات الأخرى للمدرسة تلك العلاقات بالحركة الوطنية التي شملت مساندة دار الحديث للحركة الكشفية، فضلا عن علاقة الحركة الإصلاحية بتلمسان بكل من الحزبين السياسين : حزب الشعب الجزائري، وحركة أحباب البيان والحرية، كما أنه أثناء مجازر 8 ماي 1945 شارك طلبة الجمعية في هذا الحدث العظيم الذي يرجع له الفضل في تغيير النضال السياسي إلى الكفاح المسلح نتيجة إدراك الشعب الجزائري بضرورة استرجاع الحرية والاستقلال بالقوة.

*** مساندة دار الحديث للحركة الكشفية:**

نجد أن الكشافة الإسلامية الجزائرية، كحركة وطنية تناضل دفاعا عن الشخصية الجزائرية وتعبر عن تطلعات شبابها في الحرية والاستقلال، وتساهم في نشر الروح الوطنية والوعي القومي من خلال علاقتها بالحركة الإصلاحية، حيث أن أغلب فتيان وقادة الأفواج الكشفية كانوا منخرطين في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أو من تلامذتها، إذ أن القائد محمد بوراس مؤسس الحركة الكشفية الإسلامية كان كثير التردد على نادي الترقي لسماع محاضرات الشيخ ابن باديس[41].

بدأت علاقة دار الحديث بالحركة الكشفية بوجود الشيخ الإبراهيمي في تلمسان، فكثيرا ما وصفت تقارير الإدارة الاستعمارية بعض أفواج

الكشافة بالمنطقة بأنها متأثرة بشخصية وآراء الشيخ البشير الإبراهيمي. ولم تكن تلمسان تضم فوجا واحدا من الكشافة الإسلامية، وإنما ظهرت عدة أفواج نذكر أهمها :

فوج منصورة الذي كان يشرف عليه شريف غوثي[42]، وقد قام الشيخ البشير الإبراهيمي بتدعيم هذا الفوج وهو الذي اقترح تسميته بفوج المنصورة. ويظهر دعم دار الحديث للحركة الكشفية في التبرعات المادية والمعنوية، فأثناء المخيم الفدرالي الأول المنعقد بتلمسان ما بين 23- 30 جويلية 1944 بهضبة لالة ستي[43]، وضم أكثر من 450 قائد كشاف، ساهمت في تنظيمه المجموعة الكشفية لمدينة تلمسان برئاسة المحافظ الجهوي للقطاع الوهراني الغوثي الشريف.

لما كانت هذه المجموعة تقوم بالإعداد لهذا التجمع زار وفد من رجال الإصلاح مكان المخيم يتقدمهم الشيخ البشير الإبراهيمي، وكمساهمة منهم وتضامنا مع إخوانهم في الحركة الكشفية أهدوا لهم كبشا، فأثناء هذه الزيارة لاحظ الشيخ الإبراهيمي وجود ثلاث خيم فقط، فقال للسيد الغوثي الشريف : " هذا كل ما لديكم من خيم لاستقبال الضيوف؟ فرد عليه قائلا: لا نملك سوى هذه الخيم الثلاث! فهمس الشيخ الإبراهيمي في أذن السيد عبد الرحمن القورصو أن يتدارك الأمر ويوفر كل ما يلزم من أجهزة إيواء الضيوف "[44]. هذا يعني أن الشيخ الإبراهيمي كان يشرف على التحضيرات الأولية للمخيم لاستقبال المشاركين.

اتجه السيد عبد الرحمن القورصو إلى المؤسسة المختصة ببيع وكراء العتاد والأجهزة الخاصة بالمخيمات والموجودة بمدينة وهران، فكان الطلب

كبيرا بحيث اندهش البائع وأحذ يستفسر عن السبب من أجل التأكد من صحة هذه الصفقة، إلا أن عبد الرحمن القورصو أكد على تمسكه بالطلب ومسؤوليته تجاه هذه الأجهزة، وبعد عناء طويل قبل طلبه بثلاثة شروط :

1. دفع 200 ألف فرنك نقدا وفي الحال أي تدفع كل النقود في نفس اليوم
2. احترام موعد إرجاع الأجهزة مع دفع غرامة مالية في حالة التأخير
3. المراقبة الصارمة لهذه الأجهزة عند إرجاعها مع مصاريف الترقيعات إن وجدت.

لم يكن أمام السيد عبد الرحمن القورصو حلا سوى قبول هذه الشروط القاسية، فوقع شيكا بالمبلغ المطلوب لكراء تلك الأجهزة، وعند رجوعه استقبله أهالي تلمسان بحفاوة كبيرة، فنصبت الخيم وجرى المهرجان الكشفي الذي كان له هدفان:

1- توحيد الأفواج بالقطر الجزائري تحت فدرالية الكشافة الإسلامية الجزائرية.
2- إظهار أن الجزائريين قادرين على تسيير أمورهم بأنفسهم.

" وبعد وضع المخيم الكشفي في 31 جويلية 1944 على الساعة الثانية زوالا ألقى الشيخ البشير الإبراهيمي في المساء درسا بدار الحديث على مسامع الكشافة الإسلامية حضره حوالي 300 شخص، حثهم فيه على التحلي باكتساب صفات الرجولة والشجاعة...ثم قاموا بتأدية صلاة الجمعة بدار الحديث. "[45].

كما تظهر العلاقة بين الكشافة الإسلامية وجمعية العلماء المسلمين بدار الحديث في اتخاذ فرق الكشافة المسجد لإقامة صلاة الجمعة، بالإضافة إلى أن من هذه المدرسة تخرج أعضاء الفرق الكشفية، نذكر من بينهم : خالد مرزوق الذي انخرط في هذه الحركة وعمره لا يتجاوز 14 سنة، بومدين أبو بكر[46]، عبد العزيز بابا أحمد[47] وآخرون. وقد أنشأ أول فوج لفتيان الكشافة الإسلامية بتلمسان سنة 1948، واتخذ هذا الفوج من مدرسة دار الحديث مقرا مؤقتا له، غير أن نشاطاته كانت ضعيفة حتى توقف سنة 1952. كما شارك ثلاثة كشافين من فوج الفجر في رحلة الكشافة الإسلامية الجزائرية إلى الجمبوري العربي في أوت 1954 [48].

6- دور دار الحديث أثناء الثورة التحريرية :

كان لمجازر 08 ماي 1945 الأثر الكبير في الانشقاق الذي وقع في الحركة الوطنية، وأدى في الأخير إلى تغيير النضال السياسي إلى العمل المسلح، وبرزت جبهة التحرير الوطني نتيجة الأزمات المتتالية التي شهدتها حركة انتصار الحريات الديمقراطية، حيث اختلفت مواقف الأحزاب السياسية حول مساندة ثورة الفاتح من نوفمبر 1954، حيث صرح الشيخ البشير الإبراهيمي في إذاعة القاهرة سنة 1955 قائلا: " إن وجودي في المنفى بالمشرق العربي هو من أجل المشاركة في تحرير الجزائر، ومنذ وصولي إلى القاهرة لم أتوقف عن التعاون مع الأمم المناهضة للاستعمار"[49].

و في سنة 1956 انضم الكثير من مناضلي الجمعية إلى الجبهة كأفراد لأنها تميزت برفضها الكلي لمبدأ القائد أو الزعيم، كان شعارها المقدس لا

يوجد إلا زعيم واحد هو الشعب الجزائري . ونجد أن الشيخ الإبراهيمي كان يشجع سكان تلمسان على حمل السلاح .

بادرت الإدارة الاستعمارية بأعمالها الإجرامية في يوم 25 ماي 1956، إذ حولت دار الحديث من مدرسة إصلاحية لجمعية العلماء المسلمين بتلمسان إلى ثكنة عسكرية بأمر من الوالي العام بوهران، حيث تم حجز كل ممتلكات الجمعية، وجعلت المدرسة مقرا للتعذيب تسقى فيها الخمور وترتكب المحرمات، هذا ما جعل تلامذة دار الحديث يلتحقون بصفوف جيش التحرير الوطني مزودين بالأفكار الوطنية التي تلقوها من الدروس المقدمة لهم[50].

" وقد أبدى الثوار نشاطا ملحوظا في عملياتهم بمقاطعة وهران، حيث شنوا في أولاد الميمون هجوما قويا على مزرعة المستعمر ابيري، فأوقدوا فيها النيران... ووقعت عملية تخريب واسعة في طريق المغرب قرب واد الزيتون فيما بين تلمسان وصبرة، كما سجل هجوما عنيفا على مكاتب وبنايات إدارية في الناحية وإيقاد النيران فيها...، وقع إحراق مستودع كبير لحلفاء في الغزوات ويقال أن الخسائر مرتفعة..."[51].

الإحالات :

(1) جيلالي صاري، دار الحديث بتلمسان مؤسسة حفظت الأصالة والتراث، كلمة ألقاها في الذكرى الخمسين لافتتاح دار الحديث بتلمسان27 سبتمبر 1937- 1987، ص 25.

(2) تأسست هذه الجمعية يوم 1 سبتمبر 1931، وكان يرأسها المحامي عبد السلام طالب، كما أن الشيخ البشير الإبراهيمي أصبح عضوا من أعضائها عام 1934، واقترح إعادة الهيكلة والتنظيم . بدر الدين اليبدري بن منصور، الذكرى 50 لتأسيس دار الحديث بتلمسان (1356هـ- 1406هـ/ 1937م- 1987م)، شركة الطبع والتغليف، تلمسان 1987، ص 11.

(3) نفسه، ص 11.

(4) بدر الدين اليبدري بن منصور، المرجع السابق، ص 12.

(5) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص 65.

(6) خالد مرزوق والمختار بن عامر، الشيخ البشير الإبراهيمي بتلمسان 1932- 1946، مركز التصوير، تلمسان (د ت)، ص 18.

(7) كانت أول مدرسة للجمعية في قسنطينة، وهي عبارة عن دار للسكن أهديت لها، لكنها لم تبنيها من الأساس كما هو الحال بالنسبة لدار الحديث.

(8) خالد مرزوق والمختار بن عامر، المرجع السابق، ص 123.

(9) رسالة الرئيس " بوتفليقة " إلى الملتقى الدولي حول العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي يوم الأحد 22 ماي 2005، قرأها " عبد القادر بن صالح " رئيس مجلس الأمة، وهي موجودة في الانترنت على الموقع http://www.chihab.net يوم 30 نوفمبر 2011 على الساعة 11:30.

(10) عبد الحميد بن باديس، ابن باديس حياته وآثاره، تحقيق عمار الطالبي، مج 2، ج1، ط1، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، الجزائر 1968، ص 561.

(11) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 306.

(12) بدر الدين اليبدري بن منصور، المرجع السابق، ص 1.

(13) عمار مطاطلة، مذكرة حياة وذكريات أحداث، الجاحظية، الجزائر، 2000، ص 183.

(14) الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني: ولد يوم الجمعة 18 أكتوبر 1907 بمدينة فاس، كان له الفضل الكبير في ربط الحركة الوطنية المغربية بالحركة الوطنية الجزائرية، حيث أنه حضر مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين الرابع بتلمسان سنة 1935، وتعرف على الشيخ الإبراهيمي، ونظرا لمواجهة الاستعمار الفرنسي من أجل أن يسترجع المغرب حريته اعتقل سنة 1952، ثم أطلق سراحه في سنة 1955، إثر استقلال المغرب الأقصى، فعمل محررا بجريدة العلم، وفي سنة 1957 عين محافظا لقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط، ثم عمل أستاذا بكليتي الحقوق، والآداب وأستاذا بالمدرسة الإدارية، وقد عينه الملك الحسن الثاني عضوا في أكاديمية المملكة المغربية، كما يعد من مؤسسي اللجنة المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني سنة 1968، توفي يوم الأحد 18 نوفمبر 1990. الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني، www.islamweb.com يوم:07-10-2011 على الساعة : 11:05.

(15) محمد خير الدين، مذكرات، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د .ت)، ص 182.
(16) بدر الدين اليبدري بن منصور، المرجع السابق، ص 3.
(17) محمد الصالح رمضان، الذكرى الأدبية لزيارة الفرقة المصرية دار الحديث بتلمسان برئاسة نابغة المسرح العربي الأستاذ ويسف وهبي، ط2، مؤسسة العصر للمنشورات الإسلامية التابعة لوزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، ص 54.
(18) عبد الحميد بن باديس، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج6، ص 164.
(19) محمد الصالح رمضان، المرجع السابق، ص 54
(20) الشيخ الفضيل الورتلاني: ولد يوم 06 فبراير 1900 في بلدية بني ورتلان، ولاية سطيف، انتقل إلى قسنطينة سنة 1930 لإتمام تعليمه، وفي سنة 1934 كلف مساعدا للشيخ ابن باديس، ثم عين ممثلا للجمعية بفرنسا سنة 1936، وبعد ذلك أسس مكتبا بالقاهرة لجمعية العلماء المسلمين سنة 1949، كما ساهم بقلمه في الثورة التحريرية، حتى توفي في أنقرة يوم 12 مارس 1959. لمزيد من المعلومات أنظر الفضيل الورتلاني، الجزائر الثائرة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر (دت)، ص ص 30-41 .
(21) محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1987، ص ص 687-690.
(22) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، ص70.
(23) لمزيد من المعلومات، أنظر إلى طلب " إعادة فتح مدرسة خاصة " دار الحديث" "، الموجودة في تقرير محافظ الشرطة المركزي : G.Ramatet إلى والي تلمسان يوم: 1938/02/14. النسخة رقم 1424 .
(24) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، ص71.
(25) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، ص71.
(26) تقرير من نائب الوالي بتلمسان إلى والي وهران 30- 01- 1939، النسخة رقم 55.
(27) تقرير من نائب الوالي بتلمسان إلى والي وهران 3-10- 1939، النسخة رقم 423.
(28) آفلو: مدينة صحراوية أشبه بقرية نائية خالية من كل نشاط فكري أو سياسي وأهلها معظمهم كان من الرحل، وكان قرار النفي بإمضاء رئيس وزراء فرنسا . محمد القورصو، القورصو محمد، تأسيس ونشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في عمالة وهران (1931- 1935)، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، 1977، ص 37 .
(29) عبد الكريم البوصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية، 1931- 1945، ط1، دار البحث للطباعة والنشر، الجزائر، 1981، ص212.
(30) محمد عباس، البشير الإبراهيمي أديبا، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص53.
(31) خالد مرزوق والمختار بن عامر، المرجع السابق، ص113.
(32) محمد البشير الإبراهيمي، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين المنعقد بمركزها العام بنادي الترقي بالجزائر 1935، المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، ص ص 57-59.
(33) نفسه، ص60 .
(34) تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية (1931، 1956)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1975، ص 177.
(35) خالد مرزوق، المختار بن عامر، المرجع السابق، ص 241.

(36) صالح بن عتيق، المرجع السابق، ص 199 .
(37) محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص 75.
(38) تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية1931- 1956، ص167.
(39) تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس، رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ص 375.
(40) خالد مرزوق والمختار بن عامر، المرجع السابق، ص 243.
(41) عمار قليل، ملحمة الجزائر، ج1، ط1، دار البعث، الجزائر، 1991، ص 154.
(42) شريف غوثي: ولد يوم 25 نوفمبر 1913 بتلمسان، انضم إلى الكشافة الإسلامية سنة 1938، وفي سنة 1939 أصبح النائب العام للفوج كما شارك في مؤتمر الكشافة الإسلامية الجزائرية المنعقد بالحراش. لمزيد من المعلومات . Khaled Merzouk , Abdelwahab Baghli : l'itinéraire d'un chef de meute Khaled Marzouk S.M.A groupe el Mansourah de Tlemcen 1936- 1962, imprimerie Daoud Brikci, Tlemcen, p 174
(43) أبو عمران الشيخ محمد جيجلي، الكشافة الإسلامية الجزائرية، 1935- 1955، ط1، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1999، ص 115.
(44) خالد مرزوق والمختار بن عامر، المرجع السابق، ص 191.
(45) مصطفى أوعامري، الحركة الوطنية في القطاع الوهراني خلال الحرب العالمية الثانية (1939- 1945)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران 2001، ص 166.
(46) بومدين أبو بكر الدين:ولد يوم 4 فيفري 1923 بتلمسان،انخرط في الكشافة الإسلامية سنة1947 Khaled Merzouk, Abdel Wahab Baghli, op cit, p 229.
(47) عبد العزيز بابا أحمد: ولد يوم 3 نوفمبر 1926 بتلمسان، انضم إلى الكشافة الإسلامية عام 1942، وكان من تلامذة دار الحديث . Ibid, p 238.
(48) شاركت الكشافة الإسلامية الجزائرية في الجمبوري العربي الأول الذي احتضنته سوريا بحضور 11 دولة عربية، حيث قاد الوفد الجزائري عمر لاغا وقد كانت الرحلة برا مرورا بتونس، ليبيا فمصر التي استقبل فيها الكشافة من قبل لجنة جزائرية تتكون من أحمد بن بلة، آيت أحمد حسين، ومحمد خيضر كما استقبلهم الشيخ البشير الإبراهيمي والرئيس المصري جمال عبد الناصر ليتوجه بعدها الوفد الكشفي نحو سوريا. أمال علوان، الحركة الكشفية الإسلامية بالعالة الغربية سيدي بلعباس – تلمسان نموذجا، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة سيدي بلعباس، 2005، ص 77.
(49) لحسن جاكره، نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة معسكر (1931- 1956)، دار الغرب للنشر والتوزيع، د ت، ص 231.
(50) خالد مرزوق والمختار بن عامر، ص 144.
(51) الشيخ البشير الإبراهيمي، يوميات الأزمة الجزائرية: الناحية الوهرانية، البصائر، العدد360، السنة الثامنة من السلسلة الثانية، الجمعة 17 شعبان 1375هـ/ 30 مارس 1956، ص 8 .